

المحكى واستراتيجية الممكن

قصة "الرجل الحافي" محمد الدغمومي(1)

محمد الدوهو*

تنهض كل حكاية في استراتيجيتها السردية والخطابية على ميثاق تلقى بين الراوي والمروي له. الراوي يحكي قصة يحكمها منطق الممكن المحكوم بدوره. بمبدأ السببية. يحدث ما يحدث في الحكاية لأن ما يحدث محكوم بأسباب تحكمها غاية. لكن ما يحدث هو ناتج عن صراع بين شخصي المحكي لإنتاج معنى يصب في نهاية المطاف في مقصدية المؤلف، أي أن المحكي يخضع لاستراتيجية سردية محكومة باستراتيجية خطابية تكشف في نهاية المطاف عن المؤلف كميّتا-معرفة-التلفظ (2). أين تتجلى ميّتا-معرفة التلفظ باعتبارها تحيل إلى المؤلف-الكاتب؟، إنها تتجلى أولاً في الاستراتيجية السردية المتمثلة في اشتغاله السيميائي على هذه المتواليّة السردية الكبرى. مرحلة الاحتمال-المرور إلى الفعل-التحول (3). الانتقال من مرحلة الاحتمال إلى الفعل محكوم بمنطق الممكن، ورهانات السرد المحكومة بمبدأ الانتقاء الذي بموجبه ينتقي المؤلف إمكانيّة سردية من الإمكانيات ليؤثّر بها الراوي الكون الحكائي الذي يحكيه.

تنهض استراتيجية المحكي في قصة "الرجل الحافي" على مسرحية الممكن. بدل أن يختار الراوي إمكانيّة سردية واحدة، ويعمل على تسريدها في قصة يحكمها الصراع، يعمل على ربط حالة اللاتوازن في المحكي برهانات السرد المتنوعة.

ميثاق التلقي بين الراوي والمروي له محكوم باستراتيجية سردية تدفع بالمروي له إلى ترهين ميثاق إعادة قراءة المحكي وتفكيك شفراته التي تختزنها الممكنات-المحكيات التي يطرحها الراوي. لكن ما هي الحكاية التي تشكل بؤرة سردية لكل هذه المحكيات-الإمكانيات؟

للجواب عن السؤال لا بد من العودة إلى عتبة النص المركزية-العنوان-ذلك أن ميثاق التلقي بين المؤلف والقارئ يبني على المزج بين جنسين أدبيين-القصة القصيرة والقصة القصيرة جدا. فيما يتعلق بالقصة القصيرة جدا بطلها هو الرجل الخافي أما القصة القصيرة جدا فبطلها السيد "سين" النكرة. في كلتا الحالتين هنا سمة Sème مشتركة بين القصتين تؤثر هوية البطل: النكرة. من يكون بطل القصة؟ إنه هذا الرجل الخافي، السيد سين النكرة الذي يختزل الراوي قصته قائلا: "أخيرا وصل السيد س إلى مكان وظيفته دون حذاء" (ص225).

يختزل الراوي في هذا المحكي القصصي القصير جدا حالة لا توازن في المحكي تختزلها حالة الانفصال عن موضوع قيمة الحذاء. لكن ما يثير الانتباه في الحكاية هو غرابة الموقف، إذ كيف يمكن لموظف أن ينتقل من مكان إلى مكان له سلطته الرمزية-الوظيفة-وأن يصل إليه دون حذاء؟ إنها حالة تثير الشفقة والضحك في الآن نفسه.

لكن من هو العامل المسؤول عن هذه الحالة؟ للإجابة عن السؤال لا بد من استحضار ميثاق التلقي بين الراوي والمروي له. ما يهم الراوي هو "فقط ما حدث؟ ولا يهمه" لماذا حدث ما يحدث". "لأن السيد "س" وحده المؤهل لكي يجيب عن كل الأسئلة".

بدلا من أن يوجه الراوي المحكي طبقا لإمكانية سردية يترك الراوي القارئ جميع الاحتمالات واردة في ذهن القارئ. متحولا بذلك إلى كاتب من الدرجة الثانية بحكم أن إمكانات السرد التي تشكل رهانا ممكنا من الرهانات المتعددة لبنية المحكي العميقة تُطرح، كما يصرح الراوي، فالاستراتيجية السردية تنهض على ميثاق تلقي تؤثته لعبة القص التي تتطلب ترك الاحتمالات واردة في ذهن القارئ. -بنية المحكي ومنطق الاحتمالات : ما هي هذه الاحتمالات السردية؟ للجواب عن السؤال لا بد أولا من إعادة تفكيك بنية المحكي انطلاقا من بنيته العميقة التي تطرح حالة وجودية يختزلها المحكي القصصي القصير جدا" وأخير وصل السيد "سين" إلى مكان وظيفته دون حذاء" (ص225). ما يلاحظه القارئ هو أن البنية العميقة للمحكي تتمفصل على حالتين، حالة الاتصال وامتلاك الحذاء ثم حالة الانفصال عن الحذاء. بدلا من أن يسترد السيد سين حذاءه، نراه يفقده. فقدان سمة وجودية ملازمة للسيد "سين".

يعطي الراوي عدة أجوبة تبحث عن سبب فقدان الحذاء، إلا أنها أجوبة تجعل من العامل المعاكس عاملا متعددا وللقارئ أن يختار وينتقي إمكانية من الإمكانيات التسع التي تؤثر في العمق توليفات البنية العميقة للحكاية. إذ إن جدل الحرمان والتملك محكوم برهانات سيميائية عميقة. وهذا

يعني أن القارئ أمام جدلية عميقة تؤثت في الخفاء نسق الراوي الذي يربط النتيجة بالمسببات. ذلك أن اختيار إمكانية من الإمكانيات التي يطرحها الراوي على قارئه في تبيان فقدان الحذاء ستجعل المحكي يتخذ مسارا سرديا إن على مستوى البرمجة الزمنية والفضائية لأحداث المحكي أو مقصدية المحكي. لكن ما يثر الانتباه في هذه الإمكانيات والاحتمالات كونها، كما سلف الذكر، تتحول إلى محكيات تضمّر أكثر مما تظهر. لنلق نظرة عجل على هذه الإمكانيات السردية.

-الإمكانية الأولى: التي كانت ستوجه دفعة أحداث المحكي نحو مسار سردي آخر، يتمثل في شفرة اليومي ومتطلباته المعيشية، وهذه إمكانية ممكنة وواقعية، جعلت بطل القصة يصاب بالنسيان بعد أن لبس ثيابه واستعد لمغادرة شقته. اعترضته زوجته وحاصرتة بطلبات أزعجته فاندفع مغادرا ونسي أن ينتعل حذاءه. والنتيجة فقد البطل حذاءه نتيجة لضغط الواقع.

-الإمكانية الثانية: ترتبط بشفرة السرعة وما تطرحه من نتائج يلخصها الراوي في إمكائيتين. قد يكون فقدان الحذاء ناجما عن سيارة الأجرة التي ما أن فتح البطل بابها حتى اندفعت بسرعة الرعد ليجد السيد "سين" نفسه أمام إمكائيتين، إما النزول بعيدا عن مكان الخلاع الحذاء وفي هذه الحال سيفقد حذاءه لأن يد أحد المارين تكون قد تملكته، أما الاحتمال الثاني الذي يتولد عن هذه الإمكانية فأن يشتري حذاء آخر من أحد المتاجر لكنه لم يخطر بباله احتمال آخر وهو أن يجد المتاجر مغلقة.

-الإمكانية الثالثة وهي غير معقولة ولا يمكن أن تحدث مع السيد سين -مدير إدارة- كأن يكون البطل قد تخفف من حذائه في سيارة الأجرة فغلبته غفوة، وحين نزل لم يفتن إلا بعد أن ابتعدت السيارة واختفت.

-الإمكانية الرابعة: شفرة السرقة والتواطؤ إذ يمكن أن يكون فقدان الحذاء ناجما عن سرقة من لدن مهووس بسرقة الأحذية بحيلة من الحيل التي انتشرت في شوارع المدينة وفي وسائل النقل العامة وقت الزحام ومع تواطؤ بعض السائقين الماهرين في السرعة والانطلاق المتدفع المباحث.

-الإمكانية الخامسة تطرح شفرة المسخ، كما جسدها رواية "المسخ" لكافكا. تجسد هذه الإمكانية على مستوى استراتيجية الراوي السردية احتمالا، لا هو واقعي ولا هو خيالي لكنه "ممكن في زمن المسخ، تتزاحم فيه الكائنات التي يصعب معرفتها إن كانت موجودة أو غير موجودة". في هذه الإمكانية يفقد البطل حذاءه لسبب أقل ما يمكن القول عنه انه يتسم بطابعه الغرائبي، إذ إن السيد سين بمجرد أن نزل من سيارة الأجرة أحس بنغز وألم في قدميه.

فترع حذاءه ليتحسس ما في داخلهما ، لم يعثر على أي شيء، ومن باب الاطمئنان كما يقول الراوي ضرب الحذاء بالسارية القريبة لكن مفاجأته كانت كبيرة عندما سمع صراخا وتأوها فارتعب "وسقط الحذاء من يده وسالت منه خيوط دم أسود، فازداد رعبا وهو يرى رؤوس صراصير تنفلت من الحذاء وتستوي واقفة بأجساد أفزام بشرية، فلم يملك إلا الابتعاد مهرولا متخليا عن الحذاء مفضلا السلامة على الندامة". من يجرؤ على المغامرة أمام المسخ؟

لا يتوقف منطق الممكن السردى عند هذه الحالة بل يتجاوزه نحو احتمال سادس، معقول وغريب يمتح دلالاته من شفرة النسيان، إذ إن فقدان الحذاء في هذه الإمكانية نابع من احتمال عام ينم عن حمق بعض البشر الذين يركبون سيارة أجرة وينسون حمل محفظة نقودهم أو يكتشفون حين يصلون إلى وجهتهم أنهم سرقوا، وأن يد السائق تمسك بخناقهم ويربطة أعناقهم، فيصير، كما يقول الراوي، السائق والراكب متصارعين بالأقدام والأحذية. ليختلط المعقول بالغريب وهو ما حدا بالسيد سين إلى أن يضرب السائق بحذائه ويصبيه بتزيف ليضطر إلى الهروب "مفضلا السلامة على أن يجر إلى ضيافة الشرطة التي امتلأت معتقلاهما بالأحذية من مختلف الأشكال والأحجام". النسيان يولد الصراع والصراع يولد الهروب خوفا من السلطة.

أما الاحتمال السابع فيستحضر شفرة الاحتجاج ليربط النتيجة بالسبب، إذ إن فقدان الحذاء في هذا الاحتمال السابع مرده إلى أن السيد سين قرر أن يحتج أمام البرلمان لكن هجوم قوات التدخل السريع جعله يتعثر وتنخلع حذاءه ليلوذ بالفرار ابتغاء للسلامة والانفلات من تكسير الرأس. هرب ودخل مكان عمله حافيا مؤكدا احتجاجه. الاحتجاج يولد الهروب خوفا مما لا تحمد عقباه. ويأتي الاحتمال الثامن ما قبل الأخير وهو احتمال يمتح دلالاته من شفرة اللامعقول والمتمثل في كون قصة فقدان الحذاء ترتبط باحتمال: أن يكون السيد سين رجلا بورجوازيا يذهب إلى إدارته على رأسه حتى لا يتغير العالم ومن يمشي على رأسه لا حاجة له بأي حذاء". من يمشي على قدميه ليس كمن يمشي على رأسه. بين الحالتين بون شاسع.

يأتي الاحتمال الأخير ليعيد الرؤية السردية من حيث انطلقت. ذلك أن الاحتمال الأخير، احتمال الكتابة والقراءة، أن تكون أطول قصة تختصر في جملة بأكثر الاحتمالات، أما القصة القصيرة جدا فهي تحدث دون أن يسأل القارئ ولا الكاتب لماذا؟ فلا أحد يتساءل عما لا يحدث".

جميع الاحتمالات تشخص ما يمكن تسميته الدرجة الصفر في المحكي والممكن، إذ ما من إمكانية سردية من الإمكانيات التي أتى الراوي على ذكرها ترهنت وتحققت وإنما تظل رهينة محبس

البنية العميقة للمحكي القصصي القصير جدا. الراوي يحكي ممكنا متعددا يتحكم في القصة التي حكاها. على القارئ أن يعيد قراءة النتيجة على ضوء الأسباب. لكن السؤال الذي يطرح هل الإمكانيات التي أتى الراوي على ذكرها هي الإمكانيات التي يمكن أن تتحكم فيما يرويه الراوي؟ الجواب هو النفي بالتأكيد لأن العامل المعاكس l'actant opposant الذي تحكم في فعل فقدان السيد سين لحذائه يتجاوز الإمكانيات -الاحتمالات التي يوردها الراوي.

لكن الراوي، وفي إطار الوظيفة الانتقائية للممكنات السردية التي يطرحها والتي تشكل توليفات نسقه السردية العميق، يطرح ما هو ممكن وسبب ما حدث للسيد سين. بل إنه وبشكل ضمني وبالإضافة إلى الوظيفة الانتقائية يسعى إلى إقناع المروي له بأهمية بعض الإمكانيات على الأخرى وهو ما تكشفه، على سبيل المثال، بداية المحكيات، كأن يصف الاحتمال الأول بأنه احتمال ممكن وواقعي بحكم أنه يرتبط باليومي الذي يجعل السيد سين يفقد هويته وكيونته ويتحول إلى كائن تبتلعه متاعب ومصاريف اليومي.

سبقت الإشارة إلى أن الإمكانيات -الاحتمالات السردية التي يطرحها الراوي تشكل جزءا من استراتيجية السردية، لكن ما يثير الانتباه، كما سلف الذكر، أن هذه الإمكانيات تتحول إلى شفرات تشخص في العمق هذا العامل المعاكس الذي يتدخل في عملية فقدان الحذاء. مهما حاول القارئ إعطاء تفسير لما حدث للسيد "سين" فإن جميع الاحتمالات تبقى واردة. لكن هناك تفسير آخر لاستراتيجية الراوي السردية، فالملاحظ أن قصة السيد "سين" تعكس على مستوى خطاب الكتابة استراتيجية الكتابة التي تكتب وتنتظر لما تكتبه، خاصة أن قصة السيد سين تمزج بين القصة القصيرة جدا والقصة القصيرة. القصة القصيرة جدا تعتمد استراتيجية التكثيف وبالتالي فهي تعتمد مبدأ خير الكلام ما قل ودل تاركة التفاصيل للقارئ الذي يتوجب عليه إعادة كتابة الحكاية والبحث عن أسباب النتائج(4). لكن الراوي في قصة السيد سين يمزج الدورين معا، فهو ينفذ استراتيجية التكثيف وفي الآن نفسه يبحث، وهذا هو دور القارئ في القصة القصيرة جدا، عن أسباب ما يحدث.

هذا فيما يتعلق بالرؤية السردية، ماذا عن البرمجة الزمانية والمكانية للمحكي وممكناته السردية؟ ما يلاحظ على البرمجة الزمانية والمكانية لأحداث المحكي كونها تنهض على متواليه الذهاب والوصول. ينطلق السيد "سين" من منزله ليصل إلى مقر عمله -الإدارة-. وبما أن عملية حرمان السيد سين تمت أثناء تنقله فإن الانطلاق من منزله نحو عمله ترتبط بكونه نوطوب الطريق الذي يشكل فضاء عتبة يتحول بدوره إلى فضاء أزمة يساهم في ترسيخ اغتراب السيد "سين" في الزمان والمكان، ذلك أن

عملية فقدان الحذاء وبرمجتها زمنيا ومكانيا وقعت في الطريق والفضاءات الجزئية المرتبطة به، كالسيارة، المتجر، وسائل النقل-السيارة-، معتقالات الشرطة... وهذه الفضاءات الجزئية تشكل كما يرى باحتين بؤرة لحدوث الأحداث الكبرى واشتعال فتيل الأزمات الكبرى في أعمال دوستيوفسكي بل إنها أمكنة تحدث فيها أزمات تقلب حياة الشخص رأسا على عقب (5).

بدل أن يتنقل البطل من مكان إلى مكان ليتوج انتقاله في فضاء يتحول إلى فضاء الإنجاز، نرى العكس هو الذي حصل. التنقل لم ينته بتتويج البطل بل العامل المعاكس-المتعدد هو الذي توج سلطته في المكان والزمان وحرم البطل من حذائه. الكل تكالب على الطبل ليحرمه من حذائه، هو بطل أعزل في مواجهته لعامل جمعي.

ما أتينا على ذكره يرتبط باستراتيجية الراوي السردية. ماذا عن استراتيجيته الخطائية؟ كل خطاب سردي يطرح ما يمكن تسميته مع إدوارد سعيد بالتموضع الاستراتيجي La localisation stratégique (6)، وهي وضعية تكشف عن موقف الكاتب تجاه المادة التي يصفها. لا يمكن فصل استراتيجية السرد في قصة السيد سين دون ربطها بالاستثمار الدلالي لهذه الاستراتيجية من طرف محمد الدغمومي كذات كاتبة و تموضعه الاستراتيجي تجاه المادة التي يصفها وتحديد موضوع التأثير السردية السيد "سين". فما حدث للسيد "سين" يكشف إلى أي حد أنه لا يمكن التفكير فيه كشخصية علامة وشكل دون موضعه داخل السياق الثقافي الذي يفكر فيه محمد الدغمومي، وبعبارة أكثر وضوحا فالسيد سين علامة-شكل تحيل إلى لاشعور سياسي وتاريخي يوظفها كشخصية تعيش أزمة ممكن في تاريخ الأدب المغربي والعربي على حد سواء (7). بحكم انتمائه إلى ما تسميه ماري دوغلاس نمط المجتمعات القدرية Société fataliste التي لا تمنح الأفراد حرية اختيار الممكن الذي يؤمنون به في إطار الجماعة التي يعيشون داخلها. (8).

عملية حرمانه، المتعددة الأوجه، من الحذاء تجعل منه كائنا يعيش الدرجة الصفر في الوجود، أي أنه شخصية تظل في حالة الاحتمال ولا تتحقق. وهذا يحيل إلى صراع عميق يتحكم في جدلية الاتصال والانفصال، إذ إنه لا يمكن فهم هذه الجدلية دون فهم القيم التي تتحكم في عملية الصراع القائمة بين البطل والعوامل الأخرى التي تحرمه من حذائه. ما هي هذه العوامل؟ سبقت الإشارة إلى أنها عوامل متعددة ومتنوعة، أهمها الزوجة والسائق والسرقة وهي عوامل لا يمكن أن تتحرك من تلقاء ذاتها بل لا بد من مرسل متعال يتحكم فيها كعوامل في مواجهتها للبطل.

لكن القراءة السياسية لمسار البطل وهويته ستجعلنا نقف على حقيقة أن البطل لا هوية له، اسم نكرة، ينتمي إلى الطبقة المتوسطة التي تتهافت تاريخيا ووجوديا لأسباب وعوامل متنوعة، منها اليومي الذي يذيب هويتها الحقيقية في صيرورة اليومي وتفصيله الاستهلاكية المملة. ليس غريبا أن يصبح النسيان سمة ملازمة لهوية البطل ويتحول إلى شكل دون هوية حقيقية بحكم أن تجليات هذه الهوية العميقة تتحكم فيها عدة إكراهات.

للنسيان على مستوى الكتابة دوره هو الآخر إن كان محمد الدغمومي يؤثت وجود بطله بالنسيان فلأن النسيان هو شرط السعادة، كما يرى نيتشه، النسيان هو ما يجعل السعادة سعادة حقيقية: إمكانية النسيان هي القدرة على الإحساس للحظة ما خارج التاريخ. ذلك أن الإنسان، يضيف نيتشه، الذي لا يستطيع أن يجلس على عتبة اللحظة وأن ينسى كل الأحداث التي مر بها، الإنسان الذي يقف وقفة المنتصر لا يمكنه أن يفهم النصر ويمنحه للآخرين (9).

النسيان في قصة "الرجل الحافي" بؤرة لتجاوز الممكن المبرمج، هذا الما قبل والموجود سلفا الذي يؤثت قبلها طرائق تفكيرنا ويوجهه، قبل أن نفكر، صيرورة وجودنا المزوجة بالحرية، بدل العيش في هذا النسيان المضاد نسيان الهوية الحقيقية المزوجة بطعم الحرمان الذي تبتدئ به الحكاية وتنتهي.

1- محمد الدغمومي-قصة قصيرة: الرجل الحافي-قصة قصيرة جدا السيد سين، قصة نشرت في مجلة "آفاق"، مجلة اتحاد كتاب المغرب، عدد 81-82، سنة 2012. ص 225.

2- A.J Greimas. Deux amis-seuil-1976.p389.

3- أحيل في هذا المقام إلى عمل الناقد الفرنسي كلود بريمون، "منطق الحكيم"، طبعة فرنسية، 1971.

4- للمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى دراستنا، "مدخل سيميائي لقراءة القصة العربية القصيرة جدا: "مطعم هالة" لعبد الله المتقي نموذجاً، ضمن مجلة "آفاق"، مرجع مذكور، وأيضاً "شعرية التكنيف في الكرسي الأزرق لعبد الله المتقي، ضمن كتابنا "جدل الاستمرار والتجاوز: قراءات في القصة القصيرة المغربية الجديدة"- منشورات جذور المغرب، 2008.

5- للمزيد من التفاصيل حول كرونوتوب الطريق كفضاء عتبة Espace seuil يمكن العودة إلى ملاحظات ميخائيل باختين في دراسته لكرونوتوب الطريق في كتابه -Esthétique et théorie du roman. Trad. Franc-Ed Gallimard. 1973. pp385-386-389..

6- أنظر إدوار سعيد L'orientalisme—l'orient crée par l'occident-Traduit de l'américain par Catherine Malmoud-seuil 2003-p33.

7- هذا ما أكدنا عليه في دراستنا "سيميائيات الممكن: قراءة في ثلاثة نماذج روائية مغربية" جديدة "ضمن العمل المشترك" رهانات الكتابة الروائية بالمغرب"، أعمال ندوة مكناس في 17 و 18 ماي 2007. سلسلة الندوة رقم 19، 2008، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. مكناس. المغرب.

Marcel Calvez, L'analyse culturelle de Mary Douglas : une contribution à la sociologie des -8 institutions, in sociologies- Revue de l'Association internationale des sociologues de langue. <http://sociologies.revues.org>
-F.Nietzche Seconde considération intempestive ; de l'utilité et de l'inconvénient des études - 9 historiques pour la vie-Ed-Flammarion-1987.p70-71-74-86

صدر حديثا عن كلية الآداب - الرباط



